عصرية بعض الآيات (٦)

في مقالة نقدية على جزء من هذا الكتاب كان قد نشر في إحدى الصحف المحلية، كتبها الصديق عزت الله دهقان، استوقفتني عدة ملاحظات كان لا بد من الرد عليها وتوضيحها.

أ) أن القول بأن بعض آيات القرآن الكريم تتعلق بزمان خاص، لا يعني مطلقًا أنها تفقد مفهومها ومعناها وخصوصيتها. ومن المستبعد أن يعمد الصديق دهقان إلى مثل هذا الاستنباط من الكلام، خاصة وأننا نعلم أن الكثير من سور آيات القرآن الكريم تدور حول قصص الأنبياء وأن الزمن التاريخي لهذه القصص والآيات قد انتهى أو مضى، لكنها تحوي الكثير من العبر والنقاط الفكرية.

ب) كما هو معلوم، وبالعودة إلى القرآن الكريم، توجد في آيات القرآن موضوعات نعتبرها منسوخة، وكون الآية منسوخة يعني أن الآية تتعلق بزمن خاص، طبعًا بعض المفسرين وعلماء القرآن قد خلطوا بين مفهوم النسخ والتخصيص، فالنسخ هو اختصاص الآية وحكمها في مرحلة معينة من الزمن، أما التخصيص فهو اختصاص الآية ببعض من كل. على أي حال، فإن موضوعات المنسوخ تدلل على هذه النقطة، وإن بعض الآيات مرتبطة ومتعلقة بزمن خاص وأحيانا زمن خاص وأشخاص خاصين أيضًا، والمثال الواضح على ذلك هو آية النجوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ (سورة المجادلة، الآية ١٢ و١٣).

وترى إحدى القراءات لهذا النص ومفهوم هذه الآية أن هذا الحكم متعلق بزمن وعصر النبي (ﷺ) وأصحابه. واليوم لا يمكن اعتبار موضوع النجوى مع النبي (ﷺ) وبالتالي تقديم الصدقة بين يديه بحثًا معقولاً وممكنًا، وقد قدم العلامة الطباطبائي ملاحظات قيمة تستدعي التأمل في شرح هذه الآيات وقال:

الكثير من أغنياء المسلمين كانوا يناجون رسول الله (ﷺ)، وكانوا يريدون من ذلك أن يكسبوا مكانة في التقرب إليه، ويظهروا أنفسهم مقابل الفقراء أنهم من خاصة الرسول، وبالنتيجة فإن الفقراء انزعجوا من ذلك، وانكسرت قلوبهم، لذلك فإن الله ـ تعالى ـ أمر هؤلاء الأغنياء أن يقدموا مسبقًا صدقة للفقراء كلما أرادوا أن يحدثوه عن قرب."

النقطة الجديرة بالملاحظة هي رأي العلامة الطباطبائي في الآية التالية، أي الآية ١٣ التي نسخت حكم الآية السابقة إذ يقول :" إن هذه الآية الشريفة نسخت حكم الصدقة في الآية السابقة، وهي تتضمن عتابًا شديدًا لأصحاب رسول الله (ﷺ) والمؤمنين؛ لامتناعهم عن نجوى الرسول (ﷺ) تهربًا من دفع الصدقة، ولم يعد أحد يقدم صدقة أو يناجه باستثناء علي بن أبي طالب، الذي قدم نحو عشر مرات صدقة وناجاه، ولهذا السبب نزلت هذه الآية التي نسخت حكم الصدقة في الآية السابقة". (١)

وحول كون الآية ١٢ منسوخة، فإن البيضاوي في تفسيره يشير إلى ذلك متوافقًا مع رأي العلامة الطباطبائي والشيخ الطوسي والشيخ الطبرسي صاحب مجمع البيان. وينقل البيضاوي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أيضًا أنه قال : إن في كتاب الله آية لم يعمل بها أحد لا قبلي ولا بعدي، كان عندي دينار فصرفته، وكلما أردت أن أناجي النبي (ﷺ) تصدقت منه بدرهم.(٢)

وقد أورد السيوطي في الدر المنثور وضمن إشارته لهذه النقطة ونسخ آية صدقة النجوى أن عليًا (عليه السلام) قال: لم يعمل بهذه الآية غيري حتى نسخت.(٣)

وينقل السيوطي أيضًا عن ابن عباس أنه قال إن آية : إذا ناجيتم الرسول...قد نسخت بالاية التالية. ويرى الزمخشري أن زمن نزول الآية ١٢ كان بعد نحو عشر ليالٍ من الآية السابقة، وأن الفقراء لم يكن لديهم إمكانية تقديم الصدقة، والأغنياء بسبب بخلهم لا يقدمون صدقة، وهذا يفترض انصرافهم عن مناجاة النبي (ﷺ)! [٤]

وينقل الإمام الفخر الرازي عن أبي مسلم أنه كان يقول بتخصيص الآية لأجل تمييز المسلمين من المنافقين؛ لذلك فهو لا يقول بنسخ هذه الآية، أما الإمام الفخر الرازي فإنه يقول بما يقول به الجمهور من نسخ.[٥]

وقد جهد محمدجمال الدين القاسمي في محاسن التأويل لعدم اعتبار الآية ١٢ منسوخة، وهو أيضًا يعتبر أن في الآية تخصيصًا.[٦]

أما أبو الفتوح الرازي يعتبر الآية ١٢ منسوخة. [٧]

أما ابن عاشور في «تفسير التمهيد والتنوير» فإنه يعتبر أن الآية ١٢ منسوخة بإجماع العلماء. [٨]

أما ابن كثير فينقل في تفسيره عن معمر بن قتادة أن زمن تطبيق هذه الآية كان ساعة أو بعض اليوم، ومصداق ذلك ما قاله مجاهد عن علي (عليه السلام)... ويعتبر أن الآية منسوخة.[٩]

في الواقع يمكن القبول بأن آية النجوى تتعلق أو تعود إلى مرحلة زمنية خاصة لعشرة أيام وحتى لبعض اليوم على ما يقوله البعض مثل ابن الكلبي. من ناحية أخرى، فإن الأشخاص موضوع الآية محددون: النبي (ﷺ) وأصحابه منهم علي ابن أبي طالب (عليه السلام). فما المشكلة إذا قيل إن هذه الآية أو آيات أخرى تعود لمرحلة زمنية معينة أو بتعبير آخر أنها "معاصرة "؟

أما السيد دهقان فيرى أن هذه الآية صادقة مع جميع الأئمة المعصومين عليهم السلام. وأن على كل شخص يريد مناجاتهم تقديم صدقة، إضافة إلى ذلك، وبالرجوع إلى كلام الإمام الخميني يمكن اعتبار أن الآية تشمل ولي الفقيه

أيضًا. والإنصاف يقتضي القول هنا بأن استدلال السيد دهقان وذوقه العرفاني قد أثرا في قراءته التي اعتمدت على نوع من الذوق الصوفي والبعد السياسي.

ج) إن أسلوب قراءة واستنباط السيد دهقان «للقراءات الدينية» يعتبر في الواقع محيرًا كثيرًا. فقد كتب يقول: " إننا نواجه بعض الآيات ومنها هذه الآية، وبالملاحظة التاريخية والزمنية فقد انتهى موضوعها، مثلا الآيات التي تتحدث عن نساء الرسول (ﷺ) وحتى عن بعض الاختلافات المنزلية بين النساء، والآيات التي تبحث في تبني الرسول (ﷺ)، الآيات التي تبين كيفية الدخول إلى المنازل والبيوت، أو التي تحدد أسلوب الحديث مع الرسول (ﷺ) و.... الآيات التي وقعت في ظرف زمني وعصر محدد. وهنا أليس من حق القارئ أو المفسر القول بأن النص المقدس يتناسب مع عصره وخصائص زمانه، ومع أي علائم تبرز أو تظهر؟ وعندما يعتقد قارئ أو مفسر للنص المقدس أن هذا النص بمثابة المرشد الفكري الحياتي له، ويدل بذاته على خاتميته أيضًا، فكيف لا يمكنه - أي المفسر - أن يبحث عن حاجاته العصرية في النص وأن يجد طريقًا لحلها أو إشارة عليها؟ " (١٠)

من ضمن الآيات التي أشرت لها، الآية ١٨٩ من سورة البقرة التي تتحدث عن أسلوب دخول المنازل، والآية ٢ من سورة الحجرات التي تتحدث عن آداب التحدث مع الرسول (ﷺ)، ولحسن الحظ، فإن كل توضيحاته كانت تصب في إطار نقد القراءات الدينية، وقد شرع هو أيضًا بقراءة جديدة للآيات وقدم تفسيرًا للآية ١٨٩ من سورة البقرة : ﴿ .. وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

الذي استنتجته من هذه الآية هو أن الآية تتطرق إلى أسلوب تصرف المسلمين في صدر الإسلام وأنها تذكرهم بدخول البيوت بالطريقة الطبيعية أي من الأبواب، وليس عن طريق السطح. وهو الاستنتاج الذي يمكن القول بأن أكثرية مفسري القرآن الكريم تقريبا قد تبنته، وعلى سبيل المثال :

١ - في تفسير البيضاوي جاء: أن الأنصار عندما كانوا يذهبون إلى الحج

ويحرمون، فإنهم كانوا لا يدخلون من باب المنزل، وكانوا يعتقدون أن دخول البيت عن طريق غير طبيعي هو عمل من أعمال البر.[١١]

٢ ـ الطبري في تفسيره ـ جامع البيان في تأويل القرآن ـ كتب : هذه الآية نزلت في قوم كانوا إذا أحرموا لا يدخلون منازلهم من الأبواب.[١٢]

٣ ـ السيوطي في الدر المنثور يبين اختلاف أسلوب وطريقة قريش مع الأنصار، فقريش كانت عندما تعود من الحج تدخل منازلها من الأبواب، أما الأنصار وبقية العرب فلم تكن تفعل ذلك.[١٣] وأن الله بهذه الآية قد انتقد هذا الرسم أو الأسلوب وأصلحه.

٤ ـ الشيخ الطوسي أشار إلى هذه النقطة في "التبيان"، وأن قومًا في الجاهلية كانوا عندما يحرمون يحفرون ثقبًا في ظهر منازلهم ويدخلونها من هذه الثقوب، وأن الله قد أرشدهم إلى الطريق الصحيح والصواب.[١٤]

٥ ـ أما الإمام الفخر الرازي فقد طرح وجوهًا أخرى في التفسير الكبير فقال : إن الشخص الذي كان يواجه مشكلة أو صعوبة في زمن الجاهلية ولا يمكنه الوصول إلى ما يريد، فإنه لا يدخل منزله من الباب، بل من الخلف.ليبقى فيه قرابة السنة لا يغادره، وإن الله أبطل هذا الأسلوب الذي يعتبر نوعًا من " التطيّر". والوجه الثاني أن أشخاصًا من أهل المدينة كانوا إذا أحرموا في صدر الإسلام يعمدون إلى خرق منازلهم من الخلف أو يضعون سلمًا خلف المنزل ويستعملونه للدخول عن طريق السطح لاعتقادهم بذلك.[١٥]

ويذكر الإمام الفخر الرازي قولاً آخر في تفسير هذه الآية، هو أنها توضح أو تبين الطريق المباشر للوصول إلى المعلوم، أي عن طريق المعلوم يمكن التعرف على المجهول و " المظنون " وليس عكسه، ودخول المنزل من الخلف كناية عن الطريق غير الصحيح، وأن الوصول إلى البيت يكون عبر بابه الذي هو الطريق الصحيح... الإمام الفخر الرازي يعتبر أن هذا الاستنتاج من الآية هو استنتاج كلامي يرفضه ولا يعتبره صحيحًا.

٦ ـ يذكرابن كثيرفي تفسيره أن هذه العادة جاهلية، وأن عرب الجاهلية كانوا عندما يحرمون أو عندما يعودون من السفر أو إذا اعتكفوا لا يدخلون البيوت من أبوابها بل من الخلف.(١٦)

٧ ـ أما القرطبي في تفسير «الجامع لأحكام القرآن» فينقل رواية أخرى عن هذه العادة الجاهلية، هي أن الأنصار عندما كانوا ينتهون من الحج ويرجعون إلى بيوتهم فإنهم كانوا لا يدخلونها من الأبواب، ولاعتقادهم بأنه لا يجب أن يحول بينهم وبين السماء أي حائل...(١٧)

٨ ـ ويقول العلامة الطباطبائي في «الميزان» في شرح الآية ١٨٩ من سورة البقرة:" نقل أن جماعة من العرب في زمن الجاهلية كانوا عندما يحرمون للحج لا يعودون للدخول إلى البيوت من أبوابها، بل كانوا يحدثون ثقبًا في خلف المنزل يدخلون منه عند الحاجة، فمنعهم الإسلام عن القيام بهذا العمل وأمرهم أن يدخلوا من الأبواب، والآية الشريفة يمكن أن تنطبق على هذا الموضوع لذلك يمكن الاعتماد على هذا السبب للنزول. وإذا لم يكن هذا الموضوع؛ أو القضية موجودة فإنه من الممكن أن نفسر الآية على النحو التالي: بأن جملة ﴿وليس البر بأن تأتوا...﴾ كناية عن أنه لا يجب القيام بالأوامر والأحكام الإلهية إلا بالطريقة التي أمر بها الله ". (١٨)

٩ ـ المرحوم آية الله الطالقاني في تفسيره " قبس من القرآن " يستنتج أن هذه الآية قد نزلت في إطار إلغاء عادة جاهلية وخرافية. (١٩)

١٠ ـ آية الله هاشمي رفسنجاني أيضًا في تفسير"المرشد أو الدليل" لديه الاستنباط نفسه من الآية، وهو وطبقًا للأسلوب الذي يتبعه يورد ٢٢ ملاحظة في ذيل الآية، الملاحظات الست الأولى تتعلق بالقسم الأول من الآية، لكنه يقول في الملاحظة السابعة:

٧ ـ لا يستحسن الدخول إلى المنزل في حال الإحرام من الطريق الطبيعي (من خلف المنزل وغير الباب).

٨ ـ الدخول للمنزل من الخلف في حال الإحرام عادة أو سنة جاهلية.

٩ ـ محاربة الإسلام للعادات الجاهلية الخرافية.

١٠ ـ من آداب دخول المنزل، الدخول من الطريق الطبيعي والمتعارف عليه.

١١ ـ أن من أساليب القرآن التعليمية تقديم الطريق الصحيح أو عدم قبول السنة الغلط،.... (٢٠)

الأشياء التي كتبها السيد دهقان كتفسير وتأويل للآية لم ترد في أي من تفاسير مفسري أهل السنة أو الشيعة، القدماء أو المعاصرين. فقط في تفسير «مجمع البيان» للشيخ الطبرسي، وقد أورد في ذيل الآية رواية عن الإمام الباقر عليه السلام بأن آل محمد أبواب الله وطرقه والداعون إلى الجنة وأدلتها والمرشدون لها إلى يوم القيامة، وقد قال الرسول (صلى الله عليه وآله): أنا مدينة العلم وعلي بابها.(٢١)

هذا الاستنتاج الذي أورده الشيخ الطبرسي هو نفسه الاستنباط المعروف من الآية حول الأسلوب والعادة التي كانت لدى العرب في صدر الإسلام. أما الاستنتاج الذي توصلت إليه والذي لم يعجب أو يرضي السيد دهقان هو أن تلك العادة والطريقة قد هجرت، والآية من هذه الناحية هي آية معاصرة، تتعلق وترتبط بزمن الرسول (صلى الله عليه وآله)، فهل يعتبر مثل هذا الكلام الذي قاله المفسرون، غير صحيح أو غير مقبول؟

إن الملاحظة الجديرة بالاهتمام لدى كل من العلامة الطباطبائي وآية الله الطالقاني وآية الله هاشمي رفسنجاني هي عدم لجوئهم لاعتماد رأي الطبرسي الذي فسر الآية من منظور شيعي. طبعًا فإن السيد هاشم البحراني في تفسير «البرهان» يقدم التفسير نفسه، ويرى أن الآية متعلقة كليًا بالأئمة المعصومين، عليهم السلام. (٢٢)

وهنا يمكن القول بأن رأي كل من الشيخ الطبرسي والبحراني هو نوع من القراءة أو التأويل الشيعي للآية. وأن سائر المفسرين ينظرون إلى شأن النزول التاريخي والواقعي للآية، وأن استنتاجي الذي يرى أن الآية مؤقتة وترتبط بزمن

خاص كان بالاستناد إلى رأي غالبية المفسرين. وكما أشرت فإن الطبرسي وحتى البحراني قد أشارا إلى هذا السبب المعروف لنزول الآية.

د) إن الموضوع الثاني الذي كان موضع رفض ونقد السيد دهقان هو الاستنتاج من الآية الثانية من سورة الحجرات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾.

إن استنتاج السيد دهقان من هذه الآية هو أنه لا يجب أن يعلو صوت الإنسان المسلم على صوت الرسول (ﷺ) والإمام المعصوم والولي الفقيه، وهو بالتمام استنتاج مبني على الذوق، وطبعًا إلى الحد الذي يتناسب مع ذوقه الصوفيّ الشخصي، لكن في البداية سأتوقف عند الاستنتاج الذي اعتبرت فيه أن الآية خاصة بزمن نزولها فقط، هل هو استنتاج منطقي وله أساس أم لا قيمة له؟ ومن أجل ذلك، سأستعرض بعض آراء التفاسير من أجل التوصل إلى أدلة وشواهد تؤيد أحد الاستنتاجين، استنتاجي واستنتاج السيد دهقان.

١ ـ يرى البيضاوي في «أنوار التنزيل» أن هذه الآية والآيات التالية تعتبر معاصرة، فلقد طلب الله من الناس أن يخفضوا أصواتهم عندما يتحدثون مع النبي(ﷺ)، بحيث يكون صوتهم أقل من صوت الرسول(ﷺ)[٢٣]

إضافة إلى ذلك، فإن البيضاوي كتب في تفسير الآية ٤ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ يقول : إن البعض كانوا ينادون الرسول (ﷺ) من خلف غرفته أو غرفة إحدى نسائه (ﷺ). مثل عيينة بن الحصين والأقرع بن حابس و... وأن الله اعتبر عملهم غير عاقل، فكيف يمكن للسيد دهقان أن يفسر هذه الآية، بحيث لا يهمل مفهومها العصري؟

٢ ـ الطبري يعتبر أنها آيات نزلت في نقد تصرف العرب الذين كانوا ينادون الرسول (ﷺ) من الخارج أن : اخرج يا محمد (ﷺ) ! [٢٤]

٣ ـ السيوطي في «الدر المنثور» يشير لهذا الأمر، أي أسلوب نداء الرسول (ﷺ) وينقل أن أبا بكر وعمر كانا عندما يتحدثان مع الرسول (ﷺ) يرفعان أصواتهما، وقد نزلت الآية في هذا الشأن أو الموضوع، مع أن حديث أبي بكر مع عمر عند الرسول (ﷺ) كان حول الأقرع بن حابس، بحيث أدى الجدل والنقاش إلى ارتفاع الأصوات. [٢٥]

٤ ـ الشيخ الطوسي وضمن الإشارة إلى الأسلوب نفسه في نداء الرسول (ﷺ) بصوت مرتفع، وبالاستناد إلى قراءة ابن مسعود يكتب أن أكثر الذين كانوا ينادون الرسول (ﷺ) بصوت مرتفع كانوا من بني تميم.[٢٦]

٥ ـ الإمام الفخر الرازي في «التفسير الكبير» يرى أن هذه الآية والآيات التي تليها كانت حول أسلوب الحديث مع الرسول (ﷺ) وحفظ احترامه. [٢٧]

٦ ـ القرطبي أيضًا يرى أن سياق الآيات هو تجليل وتعظيم الرسول (ﷺ) وتوقيره والأمر بتخفيض حدة الصوت في محضر الرسول (ﷺ). [٢٨]

٧ ـ أما العلامة الطباطبائي فقد كتب يقول: " لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله (ﷺ)، أي في الوقت الذي تتحدثون فيه إليه لا يكون صوتكم أعلى من صوت حضرته... لا تتحدثوا معه كما تتحدثون مع بعضكم البعض الآخر بالصياح؛ لأن رعاية الاحترام والتعظيم له تستوجب وتقتضي أن يكون صوت المتحدث عند مخاطبته أقل من صوت حضرته، وفي ذيل الآية الرابعة كتب:

من سياق الآية يبدو أو يتضح أن الحادثة تنبئ عن خبر وقع، وأن الأشخاص كانوا من الأجلاف الذين ينادون حضرته من خلف جدران حجراته... [٢٩]

٨ ـ الفيض الكاشاني في «التفسير الصافي» يعتبر أن الآيات نزلت بحق بني تميم الذين كانوا يأتون وينادون الرسول (ﷺ) من خلف الجدار، ويتقدمون الرسول(ﷺ) في المسير وعند الحديث يرفعون صوتهم...[٣٠]

٩ ـ الزمخشري في «الكشاف» طرح الاستنباط نفسه، ومن جملة من ينقل عنهم أبوبكر، فإنه نقل عنه أنه بعد هذه الآية كان يتحدث مع الرسول (ﷺ)

بهدوء إلى حد أن النبي (ﷺ) كان يطلب منه أن يبين مقصوده بشكل أوضح.[٣١]

١٠ ـ الشيخ إسماعيل حقي البرسوي في «روح البيان» يطرح الاستنتاج نفسه أيضًا. وعلى الرغم من اتجاهه الصوفيّ فهو لا يذهب في شرحه إلى أبعد من سبب النزول المعروف.[٣٢]

١١ ـ المرحوم أبو الأعلى المودودي في «تفسير مفاهيم القرآن»، يرى أن الآيات دالة على رعاية الحرمة والأدب تجاه الرسول (ﷺ).[٣٣]

الطبرسي ينقل في «مجمع البيان» هذا الاستنتاج أو التفسير المشهور نفسه ولا يضيف عليه أية ملاحظة جديدة.[٣٤]

من الإنصاف القول إن قراءة أو تفسير جناب السيد دهقان لهذه الآية أو على حد قوله سياق الآيات الأولى من سورة الحجرات يعتبر لافتًا؛ فإن كل التفاسير التي أشرت لها، وخصوصًا التفاسير الشيعية، لم يشر أي منها على شمولها الأئمة المعصومين، حتى السيد هاشم البحراني، لم يكن لديه الاستنتاج نفسه الذي لدى السيد دهقان حول هذه الآيات.

وليت السيد دهقان جاء بنماذج من الآراء الواردة في كتب تفاسير القرآن الكريم كشاهد على استنباطه واستنتاجه حتى نستطيع التأمل حولها.

وأشكره؛ لأن نقده أتاح لي الفرصة كي أقدم المزيد من التوضيح حول مفهوم تأقيت بعض الآيات، وأؤكد أن تأقيت بعض الآيات أو حتى نسخ بعض الآيات، ليسا بمعني عدم إمكانية الاستفادة من تلك الآيات بشكل مطلق، أو كما عبر هو إسقاط خاصية هذه الآيات.

الملاحظة اللطيفة والجديرة بالذكر وتتعلق بموضوع «القراءات الدينية»، هي أن السيد دهقان في تفسير الآيات موضوع اهتمامه يمد إلى تقديم قراءة جديدة، وقد وقع بالضبط في الذي انتقده وحذر منه. بلا شك أنه في بداية الأمر لا يمكن إلغاء القراءات الجديدة للآيات والقول بأنه لا حق لأحد أن يتدبر ويفهم الآيات وأن يطرح فهمه بالتناسب مع مقتضيات عصره، لكن صحة أو عدم

صحة القراءة أمران يحتاجان لضابط ودليل وقدرة ومعيار، وقد أشرت إلى بعض هذه القدرات في بحث " أية قراءة ".

إضافة إلى ذلك، فإن السيد دهقان قد قال:" من الأفضل والأنسب لأمثالي أن لا يضعوا أقدامهم خارج حدودهم، وأن نترك عمل الكبار للكبار وأن نوكل لهم القراءة للدين؛ لأن لحمهم وجلدهم ودمهم معجونة بالدين، وأن كل شيء نراه نحن في المرآة، يجدونه في أصل طينتهم".

وهنا يمكن مناقشة هذه الوصية للسيد دهقان من عدة زوايا :

١ ـ الأصل هو أن يقوم المسلم بالبحث المدروس والعلمي حول أصول اعتقاده وأن يفهمها؛ لأنه لا يستطيع أن يقلد فيها.

لا يمكن أن نقبل بالتوحيد والنبوة والمعاد صرفًا بالاستناد إلى قول عالم جليل، فإن أسلوب وسياق الآيات القرآنية وطريق وعادة رسول الإسلام لم تمنع المسلمين من التفكير وإبداء رأيهم. بل على العكس، سعوا دوما أن يكون سلوكهم مع الناس انطلاقا من الأخوة والإشفاق والرحمة والمراعاة، حتى إن أمير المؤمنين عليًا ـ عليه السلام ـ طلب بصراحة من أتباعه أن ينتقدوه وأن لا يستعملوا معه لسان التملق.

" لا تمدحوني بالإحسان حتى أنهض بعدة الحقوق الباقية، وأن أؤدي الواجبات الباقية في عنقي،..... استكمال النص من النهج إلى..... من هو أقدر مني عليها." (٣٥)

فهو يدل أتباعه على طريق وعادة التفكير بالأمور وأن يكونوا من أهل الدراية لا من أهل الرواية :" كونوا دراة ولا تكونوا رواة؛ فإن رواة العلم كثير ودراته قليل". (٣٦)

وقد أوصى الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ بهذا النهج:"حديث تدريه خير من ألف ترويه " (٣٧)

وكذلك هذا الحديث الذي يستدعي التأمل:"عليكم بالدرايات لا الروايات" (٣٨)

٢ ـ إن وصية السيد دهقان بوجوب التمسك بالكبار الذين يرون في الطين الخام ما نراه نحن في المرآة، لا تحل المشكلة. قد يكون ذلك في البداية سهلاً، لكن وبعد التحقيق والتفكير نجد أن الكبار لم يكن لديهم وليس لديهم أكثر من رأي واحد أو أكثر من قراءة واحدة حول علوم القرآن الكريم. من دون شك، فإن أحد الطرق للوصول إلى هذا الأمر هو العودة إلى التفاسير، التي أشرت إلى أكثرها شهرة ضمن سلسلة هذه المباحث، خاصة إذا علمنا أن هناك أكثر من خمسة آلاف تفسير مطبوع ومخطوط للقرآن الكريم، وأن أحد أهم الأعمال الواجبة والتي لم تطبق هو نشر فهرست لهذه التفاسير المطبوعة والمخطوطة وتصنيفها بناء على توجهات ومناهج المفسرين المختلفة، وقد قمت هنا باختيار عشرة نماذج من التفاسير المعروفة والمشهورة والأكثر أهمية، وقد شاهدنا أنهم لم يكونوا على رأي واحد. واصطلاحًا ليس لديهم قراءة واحدة. في هذه الحالة هل يجب القول بوجوب العودة إلى الكبار فيما يتعلق باختلاف قراءات هؤلاء الكبار أيضًا؟ وأن نغلق أمام أنفسنا طريق التفكير والتدبر؟ أو بتعبير الشبستري في" كلشن راز" أن نترك حزام الهمة ونأسر أنفسنا في حلقة " دين العجائز". اذهب واطلب الحق كالخليل، وأوصل الليل بالنهار وبالعكس. النجم والغيم والشمس الأكبر، هي دليل على الحس والخيال والعقل الأنور. فتش عن الطريق بواسطتهم، وقل إني لا أحب الآفلين. إن وصية السيد دهقان ثمرتها تعطيل الفكر، وتستلزم أيضًا إطفاء نور اليقين في روح الإنسان، وهي مغايرة بوضوح لأسلوب وسياق القرآن الكريم الذي يحث الإنسان ويدعوه دومًا للتعقل والتدبر والاعتبار.

٣ ـ إذا ما كان الكبار يُعتبرون هم الضابط والمعيار في البحث عن الحقيقة، وأن ما يقولونه في مجال الفكر يعد "فصل الخطاب ". فكما نعلم فإن هناك من هو أكبر بين الكبار في مجال تفسير القرآن والفقه والأصول، وهذا الأسلوب القائم على الرجوع إلى الكبار إذا ماطبق بين الفقهاء المبدعين والمبتكرين لما كان باستطاعتنا التخلص من حضور وظل بعض الكبار، ولكانت أسماؤهم ومكانتهم العلمية تسدان الطريق على الفكر والإبداع أمام أي فقيه شاب

وتمنعه من التطور والتقدم. لهذا السبب يقول ابن جني صراحة: ليس هناك شيء أكثر ضررًا للناس من أن يقولوا إن السابقين لم يتركوا أو لم يبقوا لنا شيئًا. أو ابن إدريس الذي قال: كم من العلوم والأفكار تحصلت للآتين ولم يتوصل لها السابقون الذين قصروا عن الإبداع فيها. (٣٩)

ابن جني تنبه حتمًا لدقة المسألة عندما استعمل كلمة الناس، وأخرج البحث بذلك من دائرة الكبار.

٤ ـ هذه التجربة دفعت ضريبتها القاسية الكنيسة في العصور الوسطى، عندما منعت الناس من النقاش ليس فقط في المباحث الدينية، بل إنها حذرت المفكرين والعلماء والفنانين والفلاسفة من إبداء الرأي فيها أيضًا. فدانتي، يذكر في فصل " الجحيم " من الكوميديا الإلهية، وجوهًا معروفة ومشهورة من أرباب الكنيسة، وكيف تحولوا إلى سد في طريق الفكر والرأي.

إننا اليوم نواجه حالة مشابهة لحالة القرون الوسطى، فهل نحن بصدد تكرار هذه التجربة بأبعاد أخرى؟ خصوصًا أننا نعيش في بلد ارتبط فيه الدين مع الدولة أو الحكومة الدينية؟ فمثلا بالإمكان إصدار قرار تنفيذي يتعلق بتقديم منهج ما لتفسير القرآن الكريم أو نظرية فقهية ما، كما فعل المأمون العباسي لنشر النظرية الكلامية التي يريدها. ينقل الحافظ الذهبي في كتاب «العبر» أن المأمون أمر في سنة ٢١٨ هـ بامتحان جميع علماء الدين والقضاة ، أو بالتعبير المعاصر الأدق أن يمتحنوا في اعتقادهم بنظرية "خلق القرآن" التي جاء بها المعتزلة أم لا.

وقد أدخل إلى السجن عددًا كبيرًا من العلماء وعذبهم، وقتل بعضهم لرفضهم رأي الدولة أو السلطة حول "خلق القرآن ". حتى إن والي مدينة بغداد أرسل مجموعة من العلماء والمحدثين المشهورين مثل محمد بن سعد كاتب الواقدي صاحب كتاب " الطبقات الكبرى " وأبي مسلم المستعلي يزيد بن هارون ويحيى بن معين وزهير بن حرب وأبي حنيفة و.... إلى المأمون في "الرقة " في حال من الرعب والخوف والتهديد تشبه حال «جاليليو» أمام البابا !. وأعلنوا أمامه قبولهم

بقول خلق القرآن. لقد كانت مهمة والي بغداد إسحق بن إبراهيم إحضار العلماء والمحدثين والمتكلمين والقضاة وسؤالهم عن إيمانهم بخلق القرآن، وفي حال رفضهم فإنه يعمد إلى عزلهم اجتماعيًا والتضييق عليهم اقتصاديًا أو يحبسهم، انطلاقًا من قولهم بأن من لا يعتقد بخلق القرآن فلا دين له. (٤٠)

في هذا الجو من الرعب وفرض القراءة الرسمية للقرآن والدين، ينقل أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن (توفى سنة ٢١٩ هـ) أنه التقى مع عدد كبير من العلماء قرابة ٨٧٠ شخص ولم يكن أي واحد منهم يعتقد بنظرية خلق القرآن، ومن جملتهم الإمام أحمد بن حنبل الذي كان المأمون يتمنى ويرغب فى أن يتبنى نظرية خلق القرآن فرفض على الرغم من أجواء الرعب التي كانت مسيطرة، والتي كانت تضع العلماء أحيانًا بين خياري الموت أو الإقرار بخلق القرآن، مما لم يترك أي شك بالمصير الذي كان ينتظر الإمام أحمد.

وكما أشرت سابقًا، هل يمكن القول : إن تفسير فلان من وجهة نظرنا هو آخر التفاسير وفصل الخطاب لكل الآراء في باب القرآن الكريم، أو أن رسالة فلان هي فصل الخطاب لكل الفتاوى؟ عندما يكون مثل هذا الأمر غير معقول وغير ممكن، فمن الطبيعي أن يقوم أهل العلم بطرح آرائهم، وأن يستمر منهم الرأي الأكثر علمية، والذي يقترب من الحقيقة.

٥ ـ ما مقياسا الحكم والتقويم لمعرفة الحق والباطل، صحيح الكلام وغير صحيحه؟ هل الأشخاص أو آراؤهم مقياس ومعيار الحقيقة أم أن علينا أن نقيس هؤلاء الأشخاص انطلاقًا من مقياس الحقيقة ذاتها؟ فإذا كان الأشخاص هم مقياس معرفة الحقيقة، فمن المحتمل أن يقع إنسان مثل: "الحارث بن حوط " تحت تأثير بعض الأسماء وأن يشك في أن أصحاب الجمل كانوا على ضلال. فقد قال الحارث بن حوط للإمام علي ـ عليه السلام ـ هل ترى أن أعتقد أن أصحاب الجمل على ضلال !؟ هذا السؤال كان يحمل رسالة مفادها أن الحارث بن حوط عند رؤيته لعائشة زوج الرسول (صلى الله عليه وآله) وطلحة والزبير في جيش الجمل لا يمكنه سوى الاعتقاد أنهم على حق. أما جواب أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ فلم يطلب من الحارث اتباعه أو أنه على

حق وعليه السكوت أمامه وإطاعته. أو أن عليه أن لا يرفع صوته حين يكلمه؛ بل عمد الإمام علي ـ عليه السلام ـ للتشكيك في رؤية وحكم الحارث بن حوط المبني على موقفه من الأشخاص ويطلب منه أن يعرف الحق. يقول الإمام علي عليه السلام للحارث: "يا حارث ! إنما يُعرف الرجال بالحق، ولا يُعرف الحق بالرجال" (٤١) لمراجعة النص.

وانتبه ابن الميثم إلى أسلوب استدلال الإمام علي ـ عليه السلام ـ وكتب: "إذا كان يعرف الحق والباطل ـ الحارث بن حوط ـ فإنه قطعا كان اتبع الحق واجتنب الباطل، وهذه العبارة بمنزلة القضية الصغرى المضمرة في القياس التي كبراها مقدرة مثلها أيضًا". (٤٢)

إضافة إلى ذلك، فإن القرآن الكريم يرفض استدلال القوم الذين قالوا إنهم وجدوا أشرافهم وكبارهم قد اختاروا هذه الطريق وأنهم أيضًا مجبرون على اختيارها واتباع هذه العادة والطريق." ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ (سورة الأحزاب، الآية ٦٧)

من حسن الحظ أن هذه الآية القرآنية هي الوحيدة التي ناقشت موضوع "السادة والكبار"، وكما يبدو أن توجه الآية هو نقد الذين توسلوا وتمسكوا بكبارهم بدلاً من أن يبحثوا عن الطريق الصحيح لإطاعة الله وإطاعة رسوله (ﷺ).

وقد فسر العلامة الطباطبائي هذه اللفظة بالشكل التالي: "كلمة سادة، جمع سيد، وكلمة سيد بالشكل الذي قاله صاحب «مجمع البيان»، بمعنى المالك المعظم، الذي يتولى إدارة وتدبير أمور المدينة والسواد الأعظم، وكلمة الكبراء جمع كبير، ويمكن أن يكون قصده كبار السن الذين يقلدهم في العادة عامة الناس. وكما أن الناس يطيعون كبير القوم، فإنهم أيضًا يتبعون كبار السن" (٤٣)

أما الشيخ الطوسي، وبالنظر لدور الكبار في الضلالة فيفسر الآية على النحو التالي : فأضلونا ﴿السبيلا﴾، يعني: هؤلاء الرؤساء أضلونا عن سبيل الحق. (٤٤)

وينقل الشيخ الطبرسي، عن طاووس، أن الكبار هم من جملة العلماء الذين

يستطيعون أحياناً أن يكونوا أئمة الضلال وحتى الكفر، مثل الأحبار والرهبان الذين ينتقد الله طريقتهم وعاداتهم، وكذلك الناس الذين يعتقدون أن هؤلاء الأحبار والرهبان هم أربابهم :

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية ٣١)

فإن القرآن نبّه وأشار للدور الذي يلعبه الأحبار والرهبان في إضلال الناس. إضافة إلى هذا الاستدلال الذي هو في الواقع بيان لنظرة وحكم القرآن الكريم، فإنه يوصي الناس بأن يفتشوا عن بينة، ولا أعتقد أن بإمكان الإنسان عند سؤاله عن أفعاله واعتقاداته وتصرفاته يوم القيامة القول بأن الكبار قالوا ذلك، وأنه اتّبعهم ومن أجل التفكير أكثر في مسألة اتباع الكُبراء، أشير إلى نموذجين من التجارب التاريخية والوطنية :

١ ـ إذا كان مستند تسويغ الأعمال هو الرجوع إلى الكبار، فإن باستطاعتنا البحث عن شواهد تعود لكل المراحل التاريخية بعد الإسلام، والتي تشير إلى إمكانية تسويغ قبول الناس بالظلم، خصوصًا في المرحلة الصفوية والمرحلة القاجارية التي يمكن أن نجد فيهما مئات النماذج عن سعي البعض من الكبار لدعم الملكية أو السلطنة، وصولاً إلى ما قبل قيادة الإمام الخميني في عصرنا هذا، وما عاشه أهلنا من ظلم لسنوات طويلة في ظل الاستبداد الملكي بكل قسوته وخداعه وتزويره.

٢ ـ في ثورة المشروطة التي تعتبر من أهم فصول تاريخنا المعاصر، فقد انقسم كبارنا إلى مجموعتين، واحدة مؤيدة للمشروطة وأخرى معارضة لها، حتى إن الصراع بين أنصار المشروطة وأنصار المشروعية وصل حد تكفير بعضهم البعض الآخر، وكل طرف كان يعتبر الطرف المخالف أو المعارض له عدوّا لإمام الزمان ـ عليه السلام ـ، وأشير هنا إلى نماذج مليئة بالعبر:

حسن الأهري البوشهري، كتب رسالة اعتبر فيها أن ثورة المشروطة من

علامات ظهور إمام الزمان، والمذكور في كتب في تفسير آية الارتداد (سورة المائدة، الآية ٥٤): «يمكن أن يكون مراد رؤساء هذا المجلس المقدس القيام ضد مرتدي هذا العصر أو الزمان، اليوم في إيران هناك قسم أو مجموعة كبيرة من الناس قد حاد عن دين الإسلام، هذا الموضوع بديهي لا يجب أن ينكره أحد، بناء على هذا، يجب أن يصل هذا المجلس المقدس إلى القوة والانتظام التدريجي وأن يتغلب على المرتدين»[٤٥]

في الجهة المقابلة، محمد حسين بن علي أكبر التبريزي وهو من علماء المشروعية، اعتبر في رسالة له بتاريخ ١٣٢٥ هـ، أن المشروطة هي غوغاء تسيطر على العالم، وهي الفتنة العظمى التي قامت في إيران منذ نحو سنة، وباختصار فإنه يعتبر المشروطة خلافًا للشرع ويقول بصراحة إن مفاسد المشروطة أكثر بكثير من الحكومة المستبدة: «أما المشروطة، من أول وضع السلطنة وصولاً إلى آخر القوانين والجزئيات، هي خلاف الشرع الأنور؛ إذ لا يمكن إطاعة ما يقوله الفرد العامي الذي ليس بعالم وعادل فذلك مخالف للشرع، وما حدد له من مال في المجلس هو خلاف للشرع؛ لأنه من مال الأمة، وكذلك أخذ الضرائب والجمارك والفوائد البنكية والامتيازات، وكذلك أخذ الأموال من الناس مقابل التنظيف والإنارة، وأيضًا إحصاء الناس والحيوانات، إضافة إلى بيع الفحم بألف والأرز وأمثاله، فهذه أمور منافية لأحكام الدين ومخالفة لسنّة سيد المرسلين، والحاصل إذا لم يكن هناك جسارة، أقول إن كل القرارات التي ترسل إلى مسئولي أو حكام الوزارات (الوزراء) هي مخالفة للشرع من البداية إلى الختام." وهنا، ماذا سيفعل الناس سنة ١٣٢٥ هـ عندما يواجهون هذه المواقف التي كانت تحظى بدعم من كبار ذلك الزمان. فقد كان قسم منهم يتبع الشيخ فضل الله نوري، وقسم آخر يتبع النائيني، وهذه التبعية تتلخص بعبارة أن " السيد قال".

فهل هذا الاستدلال مقبول؟ هل يمكن التمسك بـ " دين العجائز " وكما قال الشبستري وأن نصنع أو ننحت دليلاً على جهلنا:

ما هو الفهم الذي جنيته من دين العجائز، حتى تنفي عن نفسك صفة الجهل؟

الهوامش

(١) الميزان، ج ١٩، ص ٣٨٨ إلى ٣٩٠. التبيان، ج ٩، ص ٥٥٠ إلى ٥٥٢. مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٥٣.

(٢) البيضاوي، تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٢، ص ٢٧٦.

(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج ٨، ص ٨٤.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٧٦.

(٥) الإمام الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٧٣.

(٦) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، ج ١٦، ص ٨٥ و٨٦.

(٧) أبو الفتوح الرازي، روضة الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٨٤

(٨) محمد الطاهر بن عاشور، التمهيد والتنوير، تونس، دار سحنون، بلاتا، ج ١٣، ص ٤٦.

(٩) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤١٧ و٤١٨.

(١٠) صحيفة اطلاعات (٣٠ / ٣ / ١٣٨٠) القراءات الدينية؟ عدد ٢٧.

(١١) تفسير البيضاوي، ج ١، ص ١٠٨.

(١٢) الطبري، ج ١، ص ٥١٦ و٥١٧.

(١٣) الدر المنثور، ج ٢، ص ٤٩١ إلى ٤٩٣.

(١٤) التبيان، ج ٢، ص ١٤٢ و ١٤٣.

(١٥) التفسير الكبير، ج ٥، ص ١٣٤ إلى ١٣٦.

(١٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، مؤسسة الريان، ١٩٩٩، ج ١، ص ٢٩٦

(١٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٢، ص ٣٤١ إلى ٣٤٦.

(١٨) الميزان، ج ٢، ص ٧٤ و٧٥.

(١٩) آية الله الطالقاني، قبس من القرآن، طهران، شركة انتشار، ١٣٥٠، ج ٢، ص ٧٧ و ٧٨.

(٢٠) أكبر هاشمي رفسنجاني، التفسير المرشد، ج ١، ص ٤٧١ و٤٧٢

(٢١) مجمع البيان، ج ١، ص ٢٨٤.

(٢٢) البرهان، ج ١، ص ١٩٠ و ١٩١.

(٢٣) البيضاوي، ج ٢، ص ٤١٤ و ٤١٥

(٢٤) الطبري، ج ٧، ص ٧٧ إلى ٧٩.

(٢٥) ـ الدر المنثور، ج ٧، ص ٥٤٧ إلى ٥٥٥.

(٢٦) التبيان، ج ٩، ص ٣٤٢

(٢٧) التفسير الكبير، ج ٢٨، ص ١١٢ إلى ١١٦

(٢٨) القرطبي، ج ١٦، ص ٣٠٣ إلى ٣٠٨

(٢٩) الميزان، ج ١٨، ص ٤٨٥

(٣٠) الفيض الكاشاني، كتاب الصافي في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٥٨٨ و٥٨٩.

(٣١) الزمخشري، الكشاف، ج ٣، ص ٥٥٤ و ٥٥٥.

(٣٢) الشيخ إسماعيل حقي البرسوي، تفسير روح البيان، ج ٩، ص ٦٢ و٦٣.

(٣٣) أبو الأعلى المودودي، تفهيم القرآن، لاهور، ١٩٨٤، ج ٥، ص ٤٢ و ٤٣. (٣٤) مجمع البيان، ج ٥، ص ١٣٠ و١٣١.

(٣٥) مجمع البيان، ج ٥، ص ١٣٠ و١٣١.

(٣٦) نهج البلاغة، ترجمة الدكتور السيد جعفر شهيدي، ص ٢١٧، الخطبة ٢١٦.

(٣٧) و (٣٨) : بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٨٤.

(٣٩) ابن جني، الخصائص، ج ١، ص١٩٠

(٤٠) ابن إدريس، السرائر، ج ١، ص ٤٥.

(٤١) أصول مذهب الإمام أحمد، ص ٦٥

(٤٢) نهج البلاغة، ص ٤٠٩، الحكمة ٢٦٢.

(٤٣) ابن الميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، ترجمة محمد رضا عطائي، مؤسسة الطبع والنشر للحضرة الرضوية المقدسة، ١٣٧٤، ج ٥، ص ٦٤.

(٤٤) الميزان، ج ١٦، ص ٥٤٢ و ٥٤٣

(٤٥) التبيان، ج ٧، ص ٣٦٤.

(٤٦) رسائل المشروعة، تنظيم الدكتور غلام حسين زركري نجاد، ص ٢٧٩ إلى ٢٨١.